شعر الصعاليك

نظرة في الرؤية والأداة

إعـداد

د/مذكر بن ناصر القحطاني

أستاذ الأدب المساعد- كلية العلوم والآداب

المملكة العربية السعودية جامعة الحدود الشمالية

رفحاء- السعودية

١٤٤٤ هـ- ٢٠٢٢م

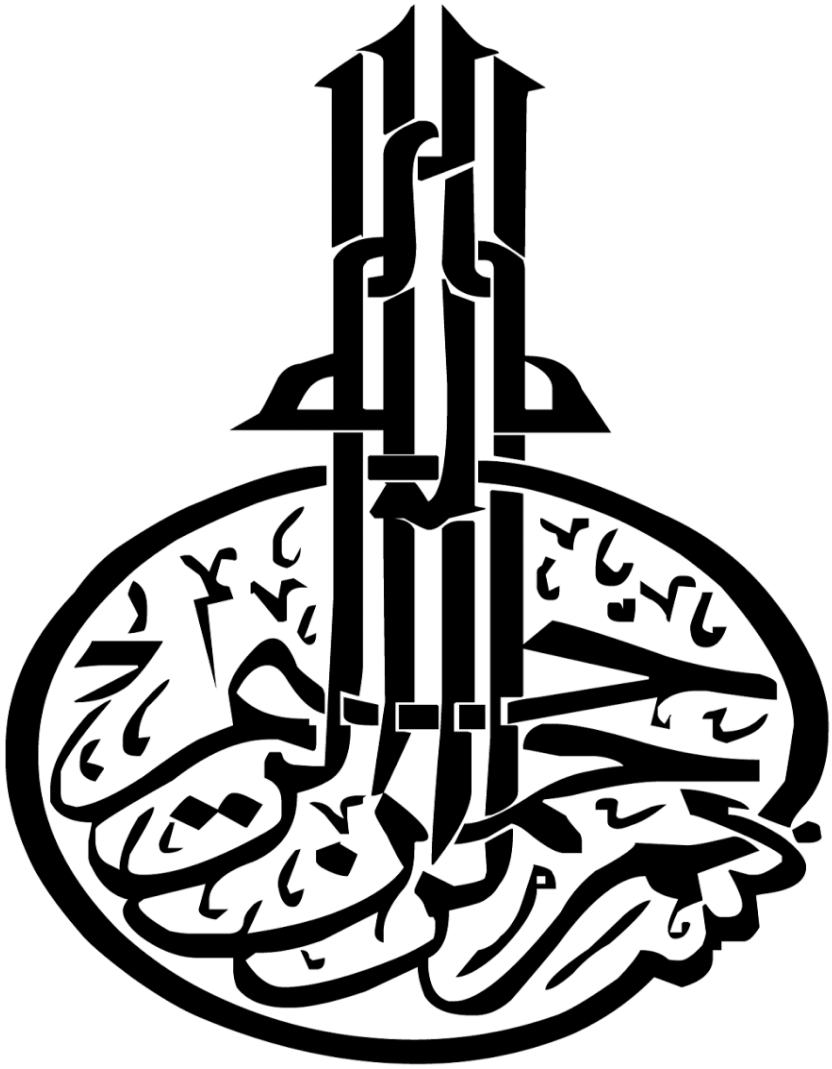

شعر الصعاليك نظرة في الرؤية والأداة

مذكر بن ناصر القحطاني

قسم الأدب، كلية العلوم والآداب، جامعة الحدود الشمالية، رفحاء، السعودية.

البريد الإلكتروني:

Mng1434@gmail.com

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث بالدراسة الرؤىٰ والأدوات التي يتميز بها شعر الصعاليك بوصفه مكونًا مختلفًا من بقية الأنماط الشعرية التي كانت موجودة في تلك الفترة، وبوصفه ثورة علىٰ النص الجاهلي القديم سواء علىٰ مستوىٰ الشكل أو المحتوىٰ، وقدمت هذه الدراسة الكثير من الدلالات والسمات لعدد من القراءات التجديدة لعتبات النص للقصيدة الصعلوكية من خلال إبراز السردية في شعرهم، ورصد أهم السمات الأسلوبية لهذا النص المختلف. وهي – بعد- قراءة منفحتة علىٰ النص ذاته دون ارتباط بالقراءة التاريخية أو التعاقبية للنصوص التي جعلت منها إطارًا أو قالبًا واحدًا غير مختلف لجميع نصوص تلك المرحلة الزمنية، فالقراءة التاريخية قد لا يلحظها القارئ في هذا البحث؛ لأنها تهدف في الأساس إلىٰ سبر المضمون والإطار معًا، وفق قراءة تكاملية تستشرف آفاق النص الشعري مستفيدة من القراءات السابقة التي تتقاطع معها، بهدف الوصول إلىٰ نتائج مختلفة عن الدراسات السابقة. وانتظمت تلك الدراسة في مقدمة وتمهيد وثلاث مباحث، وخاتمة أكدت علىٰ أن النص الصعلوكي لم يلتزم بالبدايات الكلاسيكية للقصيدة الجاهلية، وتموضع

اهتمامه بالوحدة الموضوعية التي ظهرت في شعرهم بصورة لافتة، واعتبرت القصيدة الصعلوكية مصدرًا معجميا لصانعي المعجم والدلالة الأول لأن لغتهم تنطلق من شعور خاص يغلب عليه التمرد والثورة وعدم التماهي مع هو طبيعي في وقتهم، والقصيدة الصعلوكية صورة صادقة للشاعر الجاهلي المتمرد.

الكلمات المفتاحية: الشعر – الشعراء – الصعاليك – الرؤية – الأداءة – السرد – الأسلوبية.

Poetry of tramps: a study in vision and tool

Mazkar bin Nasser Al-Qahtani.
Literature Department, College of Arts and Sciences,
Northern Border University, Rafha, Saudi Arabia.
Email: Mng1434@gmail.com

Abstract:

This research deals with the study of the visions and tools that characterize the poetry of tramps as a different component from the rest of the poetic styles that existed in that period, and as a revolution against the ancient pre-Islamic text, whether at the level of form or content. The text of the tramp poem by highlighting the narration in their poetry, and monitoring the most important stylistic features of this different text. It is - after - a reading open to the text itself without linking to the historical or successive reading of the texts that made them a single frame or template that is not different for all the texts of that time period. The historical reading may not be noticed by the reader in this research; Because it mainly aims to probe the content and the framework together, according to an integrative reading that foresee the horizons of the poetic text, taking advantage of the previous readings that intersect with it, with the aim of reaching different results from previous studies. That study was organized into an introduction, a preface, three chapters, and a conclusion that confirmed that the tramp-based text did not adhere to the classical beginnings of the pre-Islamic poem, and focused its attention on the objective unity that appeared in their poetry in a remarkable way. The tramp poem was considered a lexical source for the makers of the first lexicon and semantics because their language stems

from a special feeling dominated by rebellion, revolution and lack of identification with what is natural in their time, and the tramp poem is a true image of the rebellious pre-Islamic poet.

Keywords: Poetry - Poets - Tramps - Vision - Performance - Narration - Stylistics .

مقدمة:

لعل انفتاح النص الشعر – الجاهلي عمومًا، وشعر الصعاليك الجاهليين خصوصًا – علىٰ القراءات النقدية قديمًا وحديثًا؛ لهو من أسباب البقاء لهذا الشعر القديم – من ناحية الزمن والتاريخ – المتجدد- باعتبار الطاقات الكامنة التي تتعدد مفاهيمها، وقراءاتها علىٰ مر العصور؛ طبقًا للسياق، ولظروف التلقي واختلاف الرؤية، وتنوع الأدوات .

لقد استطاع هذا الشعر البقاء طوال هذه الفترة الزمنية متعديًا إطاره الكبير- الشعر الجاهلي- ليحل في إطار صنعه شعراؤه بتميزهم روحًا وصناعة وفكرة ومنتجًا وتجديدًا وجديدًا ، فكان هذا الإطار الجديد عنوانًا علىٰ فئة من الشعراء حرصت علىٰ أن تبقىٰ في تاريخ الأدب العربي عن طريق فنها الذي كان فيه مشاهير وكانت تحظىٰ- ولا تزال- قصائده الشعراء الصعاليك محل عناية ودراسة واهتمام منذ تاريخها، وحتىٰ وقتنا الحاضر .

وتعد هذه الدراسة محاولة في هذا الإطار : إطار القراءة المنفتحة علىٰ النص – لا التاريخ- وعلىٰ المضمون والإطار معًا، وهي محاولة تتوقف أمام النص الشعري في بيئته، وفي تدفقه، وفي استشرافه، وهي محاولة تتقاطع مع غيرها من القراءات تكاملًا، ونقدًا، واستعراضًا لجهود مرت بالنص فأضاءت واسترفدت .

وتأتي أهمية الموضوع من كونه يتناول نصًّا له سمات خاصة ، وله كذلك طبيعته الخاصة ؛ إذ إنه يعد من أوائل النصوص الثورية علىٰ المجتمع والقبيلة والأعراف التي سادت وقتها ، وكذلك هو ثورة في شكل القصيدة الجاهلية التي استقرت بشكلها إلىٰ فترات طويلة .

وتعود أسباب اختيار الموضوع إلىٰ أهمية الكشف عن الدلالات والسمات التي تفرق النصوص الصعلوكية عن النصوص الأخرىٰ ،وكذلك محاولة إعادة قراءة تلك النصوص قراءة جديدة تكشف عن بعض سماتها الأسلوبية.

وتأتي هذه الدراسة وفق المخطط الآتي:

- التمهيد: الصعاليكالدلالة والسمات:
- عتبات النص : قراءة في تجديد القصيدة .
- السردية في شعر الصعاليك.
- سمات أسلوبية في شعر الصعاليك .
- الخاتمة.

والله ولي التوفيق

التمهيد:

الصعاليك الدلالة والسمات

يعتبر مصطلح "الصعاليك " من المصطلحات التي برزت في أدبيات اللغة العربية مبكرًا؛ حتىٰ أن المعاجم اللغوية اهتمت به وبدلالته، أو بالأحرىٰ دلالاته المختلفة، فيذكر ابن منظور أن الصعلوك هو : الفقير الذي لا مال له، وليس له أو عليه اعتماد،(١)، وعلىٰ ذلك يكون التصعلك – أو الصعلكة–حاملة لدلالات الفقر والعوز(٢).

ويأتي المعنىٰ الاصطلاحي دائرًا في الإطار العام للإطار اللغوي تارة ، وحاملاً دلالات مغايرة له تارة أخرىٰ؛ بحسب القراءات المختلفة لهما، فإذا كانت الدلالة اللغوية تدور حول الفقر والعوز والاعتماد؛ فإن باحثًا بحجم الدكتور يوسف خليف ، ويعد من الرواد الذين توقفوا كثيرًا عند شعر الصعاليك دراسة وبحثًا، ومناقشة وفحصًا، وقد انتهىٰ من كل هذا بأن المادة اللغويةصعلكتدور في فلكين ، الأول منهما الفلك اللغوي من مفردات الفقر والعوز والحاجة ، وما يترتب عليها أو يتصل بها من حزن في الحياة وهم وشقاء وضيق في معايشة الحياة نتيجة لهذه الظروف.

والفلك الآخر، وهو بعد اجتماعي شديد الارتباط بالبعد اللغوي لا ينفك عنه، إذ يترتب علىٰ ذلك وجود صفات خاصة تقوم بخلق واقع أو وضع اجتماعي لهذا الفرد/ الصعلوك في مجتمعه وبيئته؛ مما يستدعي كذلك في

(١) لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر بيروت لبنان ، مادة صعلك.

(٢) مختار الصحاح للرازي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ١٤١٠ / ١٩٩٠م، مادة صعلك.

الوقت نفسه اضطرار هذه الصعلوك لخلق سلوك خاص به وله في هذه الحياة من أجل العمل علىٰ تغيير وضعه الذي يقوم المجتمع برفضه والنفور منه[١] .

لقد بنىٰ د. يوسف خليف استنتاجه هذا علىٰ أخبار وردت عن الجاهليين أنفسهم، تارة تثبت ما ذهب إليه اللغويون، وأخرىٰ تذهب إلىٰ ما اصطلح عليه في الاستعمال الأدبي؛ حيث ورد أن رجلاً من مراد- يقال له حريم-أغار علىٰ إبل عمرو بن براقة الهمداني وخيل له، فذهب بها فأتىٰ عمرو وأغار عليهم واستاق كل شيء له، يقول :

تَقـــولُ سُـــلَيمىٰ لا تَعَـــرَّض لِتَلفَـــةٍ
وَلَيلُـــكَ عَـــن لَيـــلِ الصَـــعاليكِ نـــائِمُ
وَكَيـــفَ يَنـــامُ اللَيـــلَ مَـــن جُـــلُّ مالِـــهِ
حُســـامٌ كَلَـــونِ المِلـــحِ أَبـــيَضُ صـــارِمُ
غَمُـــوضٌ إِذا عَـــضَّ الكَريهَـــةَ لَـــم يَـــدَع
لَـــهُ طَمَعـــاً طَـــوعُ اليَمـــينِ مُـــلازِمُ
أَلَـــم تَعلَمـــي أَنَّ الصَـــعاليكَ نَـــومُهُم
قَليـــلٌ إِذا نـــامَ الخَلِـــيُّ المُســـالِمُ [٢]

ويعلق د. خليف علىٰ هذا الخبر قائلًا :" من الواضح أن جو القصة، وسياق الأبيات لا يدلان علىٰ أن الصعاليك هنا هم الفقراء، وإلا فما معنىٰ هذه

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ،د. يوسف خليف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ (د . ت) ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) الأمالي ،لأبي علي القالي ، دار الكتب المصرية ،١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م،٢/ ٢١

النصائح التي توجهها إلىٰ الشاعر صاحبته بألا يعرض نفسه للتلف مع هؤلاء الصعاليك الذين ينام ليله عن ليلهم ؟ "[1]

فتلك نصائح تحمل في طياتها بعض أوصاف القوم وخلالهم ، وبعضًا من حياتهم التي تعكس سلوكًا خاصًا بهم ، ونهجًا مميزًا لهم ، فهم يختلفون عن الفقراء القانعين بفقرهم وقانعين باستمرارية الحياة لهم في سلام وأمان بخلاف الصعاليك الذين غير الفقر من سلوكهم، وجعلهم هجامين سارقين قاتلين ، أشبه ما يكونوا في زماننابالبلطجيةعلىٰ حد تعبير بعض الشعوب العربية .

فالصعاليك هنا ليسوا الفقراء المعدمين الذين يقنعون بفقرهم، أو يستجدون الناس ما يسدون به رمقهم، وإنما هم أولئك المشاغبون المغيرون أثناء الليل، الذين يسهرون لياليهم في النهب والسلب والإغارة "[2]

ومن خبر آخر نمضي حيث نقرأ من أخبار امرئ القيس أنه غزا بني أسد ثائرًا بأبيه وقد جمع جموعًا من حمير وغيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكها"[3]

فمن غير شك فإن الدلالة واضحة من هذا الخبر أن الصعاليك هنا قوم غير الفقراء المعدمين، فالأمر أمر قتال يحتاج إلىٰ قوة وشجاعة، فهل يكون هؤلاء إلا أحد ثلاثة أنواع : إما صديق صدوق مجامل لصديقه ، وإما أن يكون مرتزقًا بفتوته يعطيها لمن يدفع، والمرتزقة الآن مصطلح أصبح له ارتباط بالحرب والثورات التي تشهدها بعض البلدان والشعوب ، فأصبح من الطبعي الآن أن

(١) الشعراء الصعاليك ٢٤

(٢) السابق،ص ٢٥.

(٣) خزانة الأدب ولب لباب لسان العربللبغدادي ، ط بولاق ، القاهرة (د. ب) ٣/ ٥٣٢.

يطل علينا مصطلح مرتزقة الحرب، أو أن يكون صاحب نصفة وموقف يفيد غيره ما دام متفقًا معه في المبدأ، "ونتهم أنفسنا بالسذاجة لو تصورنا امرأ القيس وقد خرج لثأر أبيه الملك يجمع جموعًا من فقراء العرب المعدمين ، فما أهمية الفقر في معركة من معارك الثأر ؟ وما الذي يحمل امرأ القيس علىٰ أن يحمل حوله جموعًا من الفقراء ليغزو بهم بني أسد ؟[١]

وعلىٰ ذلك يكون رفض تعميم صفة الفقر والعدم علىٰ مصطلح الصعاليك رفضٌ له مبرراته وأدلته ، وله ما يعضده لغويًّا من خلال قراءة نصوصهم وإنتاجهم، وكذلك السايق التاريخي يشهد لهم بذلك التحول من الفقر المدقع إلىٰ مكتسبي صفات السلب والإغارة والبلطجة، ولا تعارض في هذه الحالة من أن معني الكلمة لغويًا هو الفقر والبؤس ، وأن الحديث عن الفقراء والصعاليك في الجاهلية علىٰ أنهم البائسون المعدمون ؛ لهو ضرب من الاستسهال والارتكان إلىٰ المعنىٰ اللغوي منعزلاً عن سياقه ، فالتطور الدلالي للكلمة نفسها قد بات منفصلاً عن معناها اللغوي ، وإن كان في حقيقة الأمر ناتجًا عنها.

وتجدر الإشارة هنا إلى تعريف وضعه د. عبد الحليم حفني للصعلكة وهو:" احتراف السلوك العدواني بقصد المغنم "[٢] وهو تعريف ينحرف كثيرًا بدلالة الصعلكة إلىٰ العدوان البحت ولم يكن الشعراء الذين وصفوا بالصعلكة يهدفون بصعلكتهم إلىٰ المغنم بقدر ما كان لهم رؤية مختلفة في محاولة منهم لتنبيه المجتمع بذاك الصراع الطبقي المحتدم وقتها، ناهيك أن مصدر هذا

(١) الشعراء الصعاليك ٢٧.

(٢) شعر الصعاليك، منهجه وخصائصه، د. عبد الحليم حفني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م ، ص ٣٨.

الوصف (الانحراف) المبني علياحتراف العدوان بقصد المغنم هو وسيلة كان يستعملها الجاهليون بكثرة في تحصيل أرزاقهم ،وفرض سيطرتهم حتىٰ اشتهرت قبائل كاملة بهذه الحرفة مثل قبيلة غفار[1].

❁❁❁❁❁

(١) ينظر : تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢١،ص ٢٣.

سمات المجتمع الصعاليك :

إن القارئ للتاريخ عن العصر الجاهلي من خلال الكتب المتخصصة في هذا الشأن "نجدها حافلة بالحديث عن فقراء الصعاليك ، فكل الصعاليك فقراء،حتىٰ عروة بن الورد سيد الصعاليك الذي كانوا يلجأون إليه كلما قست عليهم الحياة، ليجدوا عنده مأوىٰ حتىٰ يستغنوا، فالرواة "يذكرون أنه كان صعلوكًا فقيرًا مثلهم "[1] والشواهد هنا كثيرة من شعره الذي ينشد فيه عن فقره وعوزه ،وما يكابد من حرمان، يقول :

ومـــن يـــكُ مثلـــي ذا عيـــال ومقتـــرًا

مـــن المـــال يطـــرح نفســـه كـــل مطـــرح[2]

وغيره من الصعاليك يذكرون الصعلكة ومظاهرها بين الجوع والعوز،يقول السليك بن السلكة :

ومـــا نلتهـــا حتـــىٰ تصـــعلكت حقبـــة

وكـــدت لأســـباب المنيـــة أعـــرف

وحتـــىٰ رأيـــت الجـــوع بالصـــيف ضـــرني

إذا قمـــت تغشـــاني ظـــلال فأســـدف[3]

(١) الشعراء الصعاليك ص ٣٠ ، شرح حماسة أبي تمام ،للتبريزي ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،مطبعة حجازي ، القاهرة ، ١٣٥٨ هـ/ ٢/ ٩.

(٢) ديوان عروة بن الورد ، شرح ودراسة :أسماء أبو بكر محمد ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٩م .ص ٩٩

(٣) ديوان السليك بن السلكة،أخباره وشعره ، دراسة وجمع وتحقيق : حميد آدم ، وكامل سعيد عواد ، مطبعة العاني ، بغداد، ط١، ١٩٨٤م، ص ٦٠.

فليست صعلكته بطبع جبليٍّ فيه وإنما هو مكتسب فيه ومضطر إليه نتجية الجوع والعوز، وليس من شيمه الأصيلة فيه الإغارة والسلب واللصوية والسرقة والقتل.

ومن هذه الأخبار أيضًا ما ورد عن الشنفرىٰ ،في قوله :

ولَــولا اجتِنــابُ الــذَأم لَــم يُلــفَ مَشــرَبٌ
يُعــاشُ بِــهِ إِلّا لَــدَيَّ وَمَأكَــلُ
وَلَكِــنَّ نَفســاً مُــرَّةً لا تُقــيمُ بــي
عَلــىٰ الــذَأمِ إِلّا رَيثمــا أَتَحَــوَّلُ
وَاَطــوي عَلــىٰ الخُمــصِ الحَوايــا كَمــا اِنطَــوَت
خُيوطَــةُ مــارِيٍّ تُغــارُ وَتُفتَــلُ
وَأَغــدو عَلــىٰ القــوتِ الزَهيــدِ كَمــا غَــدَا
وَزَلٌّ تَهــاداهُ التَنــائِفُ أَطحَــلُ
غَــدا طاوِيــاً يُعــارِضُ الــريحَ هافِيــا
يَخــوتُ بِأَذنــابِ الشِــعابِ وَيَعسَــلُ(١)

والمتأمل لهذا النص السابق يجد نفسًا تعيش مكابدة العوز والحاجة والجوع ، ومع ذلك تأبىٰ إلا الاحتفاظ بشموخها وأنفتها وكبريائها ؛ مما يفسر لنا أن هذا التمرد الذي عاش فيه هؤلاء الصعاليك إنما هو صورة من صور التمرد علىٰ المجتمع وقيوده الباطشة في بعض الأحيان ، ومن هؤلاء من فر من قبيلته ، وعاشوا في فقر، محتقرين من مجتمعهم ، عاش هؤلاء المنبوذون من

(١) ديوان الشنفرىٰ ، جمعه وحققهد. إميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢، ١٩٩٦م، ص ٦٣، ٦٤.

إخوانهم في الإنسانية ينظرون إلىٰ الحياة ليشقوا لهم طريقًا في زحمتها ،وقد جردوا من كل وسائلها المشروعة فلا يجدون أمامهم إلا واحدًا من أمرين:

الأمر الأول: أن يقبلوا الحياة الذليلة المهينة التي يحيونها علىٰ هامش المجتمع في أطرافه البعيدة خلف أدبار البيوت، يخدمون الأغنياء، أو ينتظرون فضل ثرائهم، أو يستجدونهم في ذلة واستكانة .

الأمر الثاني : أن يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة كريمة أبية، ويفرضون فيها أنفسهم علىٰ مجتمعهم ، وينتزعون لقمة العيش من أيدي مَن حرموهم منها ، دون أن يبالوا في سبيل غايتهم أكانت وسائلهم مشروعة أم غير مشروعة[1] .

وهذا يفسر لنا مضامين الخطاب لهؤلاء الشعراء الصعاليك ، إذ تجد في شعرهم من حين لآخر تقديم مبررات وتفسيرات – بصرف النظر عن قبولها أو صحتها – للمجتمع أو القارئ بما تحمله من قصد كسب الود والعطف منهم ، وأن هذا الأمر – التصعلك – لم يكن بأيديهم فقط ، وإنما كان بسبب ظلم المجتمع وقسوته وقهره لهم في كثير من الأحيان ، وعدم العطف عليهم في أحيان أخرىٰ.

ويقسم الصعاليك إلى ثلاث طوائف :

-**طائفة الخلعاء الشذاذ** : الذين أنكرتهم القبيلة وتبرأت منهم ، وطاردتهم من حماها ، مثل : حاجز الأزدي، وقيس بن الحدادية، وأبي الطمحان القيني.

-**طائفة الأغربة السود** : الذين سرىٰ إليهم السواد من أمهاتهم فلم يعترف بهم آباؤهم مثل : تأبط شرًّا ، والشنفرىٰ الأزدي، والسليك بن السلكة .

(١) الشعراء الصعاليك ص ٣٥ .

-طائفة الفقراء المتمردين : الذين تصعلكوا نتيجة للظروف الاجتماعية والاقتصادية المزرية، ويمثلهم عروة بن الورد وطائفة كبيرة من صعاليك هذيل[1]

والناظر إلىٰ هؤلاء الصعاليك بفئاتها الثلاثة يجد أنهم عاشوا جميعًا في تلك المرحلة العصرية – العصر الجاهلي – من ناحية الانتساب الزماني ، ولكنهم مع هذا- وبنظرة أبعد – قد تخطوا حاجز تلك الفترة بكثير ، وذلك لأنهم تجاوزا ذاك الإطار الاجتماعي والمعيشي لنظام القبيلة وما تفرضه عليهم من قيود وضوابط ، ووجدوا أنفسهم غير متحملين لقبولها؛ فكانت فكرة الخروج والاعتراض والثورة والتمرد والعصيان هي الصوت الداخلي الذي يصرخ بداخلهم محاربًا كل هذه القيود وتشكلاتها.

فلم يستطيعوا مسايرة المجتمع وقتها في قبول أي انتقاص من كرامتهم ورجولتهم أو الإشارة إلىٰ ضعفهم وعجزهم بسبب تلك الظروف الاجتماعية التي يعيشونها ، ومن أجل ذلك كان القرار سريعًا وعاجلا بأن يهربوا من هذه الحياة ، وأن ينعموا بحياة خاصة رسموا معالمها لأنفسهم بعيدًا عن أي شكل للقيد، وأن يتجمعوا وإن لم يجتمعوا، وقرروا أن يكونوا الصعاليك بكل ما تحمله الكلمة من معانيها لغة ومصطلحًا بكل دلالات محتملة لهذه الكلمة، وأن يكونوا الصعاليك دون أنف المجتمع الجاهلي،وقد حققوا ما أرادوا فكانت هذه الفئة من المجتمع الجاهلي مصدرًا ثريًا للشعر الدال علىٰ ذات إنسانية مفعمة ومتفردة تستحق التأمل والتوقف والدراسة بشكل مستمر، ولا سيما الدرس الأنثروبولجي ليقف علىٰ حقيقة مشاعرهم وخصائص مكوناتهم دون ظلم لهم وتحمليهم بأوصاف ثقيلة عليهم .

❁❁❁❁❁

(١) تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢١ (د.ت) ص ٣٧٥.، وينظر الشعراء الصعاليك ٥١

عتبات النص

قراءة في تجديد القصيدة

تميز الصعاليك عن مجتمعهم، وتميز شعرهم وامتاز، وأبرز ما انفردوا به – ابتداء–هو خروج موضوعاتهم عن النمط السائد في الشعر الجاهلي، فنقرأ أحاديث المغامرات وشعر المراقب، ووصف الأسلحة، والحديث عن الرفاق، وأحاديث الفرار، وسرعة العَدوِ، كما تقرأ في أشعارهم آراء اجتماعية تخص مذهبهم في الحياة وطريقتهم في العيش، نابعة من تفكيرهم المميز عن غيرهم ، هذا التميز هو سمة غالبة علىٰ شعر الصعاليك وهو ما يجعل قارئ هذا الشعر يشعر أنه أمام نص فريد لإن " تميزه في أغلب الأحيان نابع من تميز الروح التي تسري فيه ، ولكننا لا نستطيع أن نحدد هذه الروح لأننا لا نستطيع أن نحس بها ،وإن كنا ندركها ونشعر بها "[1]، فتميز هذا النص الصعلوكي لا يمكن تلمسها من خلال المشاهدة كما هو الحال مع نصوص أخرىٰ ، وإنما يمكن الوقوف عليها من خلال الروح الأبية التي تشيع في النص ودلالاته المختلفة .

هذا في المدخل الموضوعاتي- وهو مدخل مهم- لكن من المداخل المهمة لقراءة شعر الصعاليك هو محاولتهم الجادة للخروج عن النظام السائد في القصيدة الجاهلية الذي التزم به غالبية شعراء الجاهلية ،فكان من أصداء خروجهم عن النظام الاقتصادي ،وتمردهم علىٰ الحياة الاجتماعية لقبائلهم أن ظهر –سواء جليًا أو علىٰ استحياء–أمارات تمرد علىٰ القصيدة الجاهلية بنمطها المعروف وقتها من حيث البناء الخاص بها من ناحية الشكل أو تسلسل المحتوىٰ.

(١) شعر الصعاليك ، منهجه وخصائصه ، د. عبدالحليم حفني .ص ٣٦٠.

ولذا فقد أغار الشعراء الصعاليك- ضمن ما أغاروا عليه حقيقة -علىٰ القصيدة الجاهلية فغيروا فيها ونمطوا لها أنماطًا لهم وحدهم ، فأتوا إلىٰ المقدمات الطللية أو الخمرية فألقوا بها جانبًا، وأحدثوا جديدًا في القصيدة الجاهلية الصعلوكية إن جاز لنا وَسْمها بهذا المصطلح الأخير .

لقد كان صوت القصيدة بالنسبة للشعراء الصعاليك هي صوتهم الخاص المبتعدين فيه عن غمار التقليد، والمشابهة مع الشعراء غير الصعاليك وقتها ، ولذا نجدهم لا يعبئون بتلك التقاليد، أو نمطية القصيدة الجاهلية، وإنما كانت قصيدة صورة لما يلزم به الشاعر نفسه من ضوابط وسلوكيات جديدة بعيدًا عن الإطار العام للنص الجاهلي أو مجتمعه .

ولا غرابة – وهذا التفسير – أن تجد نصًّا لتأبط شرًّا يكون مواكبًا لهذا التحديث الموضوعاتي ليس فيه إشارة للخمر ، ولا وقوفًا بالطلل البالي ، ولا حنينًا لذكرىٰ الأحباب التي فارقوها، وتذكر أيامهم الخوالي، مما هو معروف في أشعار الجاهليين ، يقول تأبط شرًّا:

أَغَــرَّكَ مِنّــي يــا اِبــنَ فَعلَــةَ عِلَّتــي
عَشِــيَّةَ أَن رابَــت عَلَــيَّ رَوائِبــي
وَمَوقِــدِ نيــرانِ ثَــلاثٍ فَشَــرُّها
وَأَلأَمُهــا أَوقَــدتَها غَيــرَ عــازِبِ
سَــلَبتَ سِــلاحي بائِســًا وَشَــتَمتَني
فَيــا خَيــرَ مَســلوبٍ وَيــا شَــرَّ سـالِبِ
فَــإِن أَكُ لَــم أَخضِــبكَ فيهــا فَإِنَّهــا
نُيــوبُ أَســاويدٍ اشَــولُ عَقــارِبِ

وَيــا رِكبَــةَ الحَمــراءِ يــا شَــرَّ رِكبَــةٍ

وَكــادَت تَكــونُ شَــرَّ رِكبَــةِ راكِــبِ(١)

بدأ تابط شرًا ـ قصيدته لا من حيث تبدأ القصيدة الجاهلية التي تبدأ غالبًا بمقدمة طللية يبدع كل شاعر ويغير داخلها ،لكن لا يخرج عن إطارها ، خرج الصعاليك عن الإطار ،وغيروا العتبات ودخلوا إلىٰ نصوصهم مباشرة دون مقدمات هي أشبه الوشي ،والحلي الذي إن يكثر؛ فإن العين تتلفت عن مضمون القصيدة إلىٰ فرعيات لم يقصدها الشاعر لذاتها ،والذي يدلنا علىٰ نقطة البدء في القصيدة،وأنه إنما ينشد شعره بعيدًا عن الزركشة والمداخل المنفصلة عن موضوعه، فقد قال تأبط شرًا ما ناسب الموقف دون أن يزركش أو أن يلجأ لمقدمات تفصل القارئ عن موضوع القصيدة ،وشاهد آخر من قصائد تأبط شرًا أيضًا لكنها هنا من مطولاته التي تناسبها أن تكون لها مقدمة طللية شأن القصيدة الجاهلية في هذا الوقت ، لكن تأبط شرًا – شأن الشعراء الصعاليك– أبىٰ أن يسلك هذا المسلك التقليدي ، هذه القصيدة يبدأها الشاعر بقوله :

وَقــالوا لَهــا لا تَنكِحيــهِ فَإِنَّــهُ

لِأَوَّلِ نَصــلٍ أَن يُلاقِــيَ مَجمَعــا

فَلَــم تَــرَ مِــن رَأيٍ فَتــيلاً وَحــاذَرَت

تَأَيُّمَهــا مِــن لابِــسِ اللَيــلِ أَروَعــا

(١) ديوان تابط شرًا وأخباره ، جمع وتحقيق :علي ذو الفقار شاكر ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م ، ص٦١.

قَليـــلُ غِـــرارِ النَـــومِ أَكبَـــرُ هَمِّـــهِ

دَمُ الثَـــأرِ أَو يَلقـــىٰ كَمِيّـــاً مُقَنَّعـــا(١)

فقد تناول فيها تأبط شرًا موقفًا حقيقيًا ترجمه إلىٰ سيرة شعرية في نص مفعم بالواقعية والحيوية النابضة، من كلمات الشاعر التي تصف وتتغنىٰ بمواقفه، ولم يشأ في أثناء ذلك أن يجعل لها مدخلًا أو مقدمة، ولعل هذا الشعور الذي عاشه الصعاليك من مطاردة، ومغادرة للقبيلة لم يجعل لديهم ترف المقدمات التي تعد من زركشات القصيدة، أو من عادات القوم فرضتها حياة الدعة التي يعيشها غيرهم من شعراء الجاهلية.

وتتفق تلك النظرة السابقة مع ما جاء في رواية المرزوقي معبرًاعن هذا الموقف الحياتي الذي استثار الشاعر؛ فصدر عنه هذا الشعر مترجمًا توافقًا وواقعية بادية في شعر الصعاليك :" كان تأبط شراً خطب امرأة عبسية، فأرادت إجابته ووعدت مناكحته، فلما جاءها أظهرت الزهد، وأخلفت الوعد، واعتلت بأن الرغبة في شرفه وفضله كما كانت لكنه قيل لها ما تصنعين برجلٍ يقتل عنك قريبًا، لأن له في كل حيٍ جنايةً، وعنده لكل إنسانٍ طائلة، فتبقين أيمًا! فانصرف تأبط شراً وقال هذه الأبيات.(٢)

إن هذه حادثة دالة ،أنتجت شعرًا واقعيًا لم يشأ صاحبه أن يجعل عتبته مقدمة يتأول بعدها أن يتوصل إلىٰ موضوع القصيد ، وإن أول القصيدة أوصل

(١) ديوان تأبط شرًا ١١٢ .

(٢) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، المحقق: غريد الشيخ وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م / ص ٨٩٤.

لنهايتها ـ هل هي وَحدة موضوعية ؟، قد يكون ذلك ـ واللافت أيضًا أنه ليس هناك تعسف تأويل للبداية ولا إلحاح علىٰ شئ متخيل ، في أول القصيدة ترفض امرأة أن ترتبط برجل يصارع الموت مع كل خطوة يخطوها؛ لأن مصيره مجهول يحوطه الردىٰ ، وآخر القصيدة يؤكده هو أن هذا الموت طريق اختاره، وأنه لا يلذ له الموت علىٰ فراشه، شأن الخاملين المترفين الذين يعيشون حياة الترف ، ولذا فموته ليس سهلاً، وإنما يكون بعد صراع وعراك وسلب وإغارة ، وفي كل ذلك تنطوي رسالته التي يريد إيصالها للمجتمع أنه صعلوك له منهجه في الحياة لا يرتضي سواه، ولا يبغي غيره.

وتفسير آخر وقفت عليه عند د. عبد الحليم حفني لمطالع القصائد عند الشعراء الصعاليك- وهو قريب مما ذكرت-ويؤكده حيث يقول: [1] " إن الشاعر يميل بفطرته إلىٰ تضمين نفسيته ومشاعره أننا نجد نوعًا بارزًا بين المطالع يعمد فيه الشاعر بأسلوب مباشر إلىٰ إعلان نفسيته، وإظهارها في المطلع ،حتىٰ إننا لنعرف نفسية الشاعر إزاء الموقف، ومناسبة القصيدة بصورة واضحة غير رمزية من خلال المطلع ، بل أحيانًا من خلال البيت الأول، ومن هذه المطالع مطلع لامية العرب للشنفرىٰ :

أقيمـــوا بنـــي أمـــي صـــدور مطـــيكم

فـــإني إلـــىٰ قـــوم ســـواكم لأميـــل

(١)مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية ، د. عبد الحليم حفني ،الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٧م ،ص١٥٩

فهذا البيان المفصح عن نفسه في مطالع قصائد الشعراء الصعاليك لهوبحاجة مهمة لإعادة النظر في الدلالات النفسية المهمينة علىٰ النص كله من أوله إلىٰ آخره .

وهناك ملمح آخر من ملامح التجديد في شعر الصعاليك، أقصد به الوحدة الموضوعية، وقد رصده عدد من الدارسين لشعر الصعاليك لعل أولهم د.يوسف خليف الذي عقد مبحثًا عن الوحدة الموضوعية في شعر القوم قائلاً: "فالناظر في شعر الصعاليك تلفت نظره تلك الوحدة الموضوعية في مقطوعاته وأكثر قصائده بحيث يستطيع أن يضع لكل مقطوعة عنوانًا خاصًا بها دالًا علىٰ موضوعها، وهي ظاهرة لم تعرفها قصائد الشعر الجاهلي القبلي في مجموعه"(١)

وقد انطلق د. خليف بهذا الملمح في مغامرة نقدية حيث عنون القصائد والمقطعات واختبر هذه العناوين في ارتباطها وصلاحيتها كدلالة علىٰ مضمون القصيدة أو المقطعة فوجد أن هناك ارتباطًا واضحًا بينهما ، ولقد ضرب أمثلة من غالبية شعراء الصعاليك باختلاف طباعهم وشعرهم، يقول د. خليف في سياق وضع عناوين دالة علىٰ قصائد القوم :" فمثلًا بائية الشنفرىٰ غارة علىٰ الغوص، ورائية تأبط شرًا احتيال، وفائية السليك العاشية المذعورة، وبائية حاجز نجاة،ورائيته فرار، ورائية أبي الطمحانحنين،وكافية تأبط شرًا الصديق الصعلوك ورائية الشنفرىٰ التي أنشدها قبل مقتله نهاية صعلوكأو وصية الصعلوك أو وليمة الضبع(٢)حتىٰ وإن تعددت الموضوعات داخل المطولات

(١) الشعراء الصعاليك ٢٦٦.

(٢) الشعراء الصعاليك ص ٢٦٥.

الصعلوكية إلا ان هذا التعدد هو تعدد الفرع علىٰ الصل بمعنىٰ أن الشاعر يمسك بتلابيب موضوعه ويتناول تفصيلاته فنجد مثلًا "لامية ذي الكلب الهذلي علىٰ كثرة ماتناول فيها من أغراض فرعية من حديث إلىٰ صاحبته عن غزواته، ومن حديث عن تربص أعدائه به وتربصه بهم، وتهديده إياهم، ومن حديث عن رفاقه، وعن أسلحته، وعن المرقبة التي يتربص فوقها ترجع في حقيقة الأمر إلىٰ موضوع واحد هو الصراع بينه وبين أعدائه؛ حتىٰ يصح أن نسميها صراع الصعلوك [١].

وإذا أردنا اختبار فرضية التجديد من خلال عتبات النص ، والوحدة الموضوعية؛ فهذا نص لعروة بن الورد وهي رائيته الشهيرة[٢]، التي يقول فيها:

أَقِلّي عَلَيَّ اللَومَ يا بِنتَ مُنذِرٍ
وَنامي وَإِن لَم تَشتَهي النَومَ فَاِسهَري
ذَريني وَنَفسي أُمَّ حَسّانَ إِنَّني
بِها قَبلَ أَن لا أَملِكَ البَيعَ مُشتَري
أَحاديثَ تَبقىٰ وَالفَتىٰ غَيرُ خالِدٍ
إِذا هُوَ أَمسىٰ هامَةً فَوقَ صُيَّرِ

يبدأها الشاعر بحوار بينه وبين زوجته التي تكثر العتب عليه لتعريضه نفسه للهلاكشأن الصعاليك ـ وكثرة غاراته من أجل فقراء قومه، وأنه إن يفعل ذلك فقد قرر هذا القرار ولا رجعة فيه ، وأن الذكر الباقي له بعد مماته خير من العيش بلا ذكر، أو سيرة حسنة، لقد رصد نفسه للموت في إحدىٰ غاراته، وأنه

(١) السابق، ٢٦٦

(٢) ديوان عروة بن الورد ص ٦٣

إن يقم بالإغارة لأجل هؤلاء الفقراء فإنه يغير أيضًا لأجل زوجته التي يخاطبها لأجل أن تحيا حياة كريمة، فهو والموت يقترعان فإن يفز الموت فهو غير جازع، إذ هو موقن أنه لا تأخير لموعده، أما إن حدثت الأخرىٰ وعاد غانمًا، فإنه بذلك سيحمي قومه من الضيم والعوز، ويغنيهم عن السؤال، أو أن ينزلوا لاجئين خلف أدبار البيوت، وتجادله زوجته؛ فتصف له ما هو فيه من الخطر، وكيف أن ناقته التي تصفها بأوصاف قمة في البشاعة والشدة ،فهي مقطعة الأثداء حتىٰ لا ترضع،فتصير أقوىٰ، ولا تلد الذكور، وهو بشع عند العرب في النوق، ولا يستقر إنسان فوقها؛ لأنه معرض للانزلاق وهذه الأوصاف تتجدد في شعر الصعاليك؛ لكنها تأتي في سياق قصيدتها، وفي السياق العام أقصد فلسفة الصعاليك في نظرتهم للحياة، ولا يثنيه هذا الجدال أن يرد بما يرىٰ من أحوال قومه وضعفائهم الذين لا يستطيعون طولًا، وهذه المسكينة التي تفني نفسها في الخدمة تدفعها الحاجة لذل السؤال ، وهذا الضعيف المحتاج الذي يجتمع معه في جد واحد يأتيه طالبًا العطاء فلا يستطيع رده ، وهو نفسه لا يرضىٰ أن يكون عالة علىٰ أحد إذ يضرب لها مثالًا يرسم الوجه الآخر الذي يرفضه عروة فيسبه ويلعنه؛ ليُعرف أنه إنما يتحدث عن نموذج مرفوض له ، يضعنا أمام إنسان يستجدي الآخرين، ويكون حيث تُذبح الأغنام والإبل ينتظر أن يجود عليه الناس من لحمها وعظامها، وهو لا يشعر بفقر قومه إذ لا يطلب إلا لنفسه ، يشبع نومًا ويشبع أكلًا ، وإذا كان من عون يقدمه لأحد فهو يعين نساء الحي؛ كناية عن أنه مخنث نسوي، لا يشارك الرجال في مهامهم، ويعاتب عروة زوجه بهذه الصورة السلبية المقززة للرجال ، كأنه يريد أن يقول : أترضين أن أكون هذا النموذج؟ أمأن أكون بالصورة المشرفة للصعلوك الذي

يجازف بحياته لأجل قومه ،وجهه مشرق ، مشرفًا علىٰ أعدائه يشتبك معهم ، قوي العزم لا يأمنه أعداؤه يترقبون خروجه عليهم في أي وقت ،فإن يمت هذا الصعلوك؛ فيكفيه أنه خلد ذكره بين قومه، وإن غني فهو مستحق للغنىٰ فغناه له ولقومه .

بهذا الصورة من الترابط والتسلسل تأتي قصائد الصعاليك، وتأتي فلسفتهم في الحياة ، ترابط القصائد بترابط الموضوع الذي يطرحونه، وإن كثرت التفاصيل فلا تزيد عن كونها تفصيلات لموضوع أصلي الرابط بينها غير معدوم ولا متعسف التأويل .

السردية في شعر الصعاليك

تدور معاني مادة سرد لغويا حول دلالات أوجزها فيما يأتي :

❁السرد : نسج الدروع وهو تداخل الحُلق بعضا في بعض .

❁والسرد : السمر .

❁وسرد الحديث ونحوه يسرد سردًا إذا تابعه[1]

والسرد: تقدمة الشئ إلىٰ الشئ تأتي به منساقًا بعضه إثر بعض متتابعًا[2] .

وظاهر من الدلالة اللغوية أن السرد إن يرتبط بالكلام، فهو نسجه وتتابعه وانسجامه وترابط سبكه، وجودة نظامه، وإن يرتبط بغير الكلام؛ فإنه يعني الإحكام في نسج الدروع وصناعتها، وهي دلالة نأخذ منها الإحكام والحبك والحبكة، ونترك النسج والصناعة، وفي هذا السياق الدلالي اللغوي؛ نستنتج أن السرد هو رص الكلام وإخراجه متتابعًا مفهومًا مبينًا ، ففي رواية عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ما كان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يسرد سردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بينه فصل يحفظه من جلس إليه "[3]

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس ، للزبيدي ، ت: د. عبد العزيز مطر ، مطبعة جامعة الكويت ، الكويت ، ١٩٧٠م ، مادة سرد .

(٢) لسان العرب لابن منظور ، مادة (سرد).

(٣) صحيح البخاري،تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر،دار طوق النجاة ،الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ، ٤/ ١٩٠ . والسنن الكبرىٰ، البيهقي ، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي

وأشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، وقدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة – بيروت،ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، ٩/ ١٥٨.

فدلالة السرد هنا هي القدرة علىٰ الإلهام والتبيان والتوضيح وحُسن الكلام؛ حتىٰ أن من سمعه يحفظه لأول استماع .

و يأتي الاستعمال الاصطلاحي ليس ببعيد عن هذا المعنىٰ اللغوي ، فالسرد أداة من أدوات القص والحكي .

وإن كل عمل حكائي ينطلق من متتاليات سردية أساسية؛ تفضي إلىٰ المقطع ، وهو أصغر وحدة سردية ، ويتكون المقطع بدوره من مجموعة من الجمل السردية ، والجملة السردية تمثل الملفوظ الذي لا يتجزأ، ويماثل الوظيفة، وترتبط الجمل السردية فيما بينها بعلاقة منطقية سببية، أو علاقة استتباعتتابع الأحداثالتي تربط الجملة السبب بالجملة النتيجة ، وتحدد أسماء الأعلام والشخصيات والنعوت، وهذه الصفات تنقسم إلىٰ حالات وخصائص أو سمات مميزة[١] .

والسرد قرين الحكي / الحكاية على أنواع ، فمنه:

الحكي بمعنىٰ الملفوظ السردي : وهو الخطاب الشفوي، أو الخطي الذي يتعهد أن يخبرنا حدثًا أو سلسلة من الأحداث، والحكي بمعنىٰ تتابع الحداث واقعية أو خيالية ، والحكي بمعنىٰ الحديث الكلامي، أو الفعل السردي.

وللعمل السردي ثلاثة أبعاد :الحكاية وهي المدلول أو المضمون السردي، والحكي القصة وهي الدال أو الملفوظ أو الخطاب أو النص السردي ذاته، و السرد: الفعل السردي المنتج[٢].

(١) تحولات الحبكة ، د. خليل رزق ، مؤسسة الإشراق بيروت ، ط١/ ١٩٩٨م / ص٢٢.

(٢) خطاب الحكاية : جيرار جينات ، ترجمة : محمد معتصم ، عبد الجليل الأزدي ، وعمرو الحلي ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ٢٠٠م / ص ٤٥ .

فالسردية إذن إحدىٰ تجليات الفن القصصي ، وقد أتاحت لنا نظريات السرد الحديثة فرصة مواجهة نصوص خارجة عن جنس النثر؛ لاعتبارها السرد جنسًا يتجلىٰ في كل أشكال الخطاب المكتوب منه والشفوي قديمه وحديثه .. والنص الجاهلي منفتح علىٰ كل القراءات منذ وجوده إلىٰ يومنا هذا[1] .

وليس بمنأىٰ عن الشعر الجاهلي شعر الصعاليك الذي يتجاوب مع هذه القراءة؛ بل شعر الصعاليك زاخر بهذه السمة- سمة الحكي والقص- وتتجسد في القصيدة أدوات السردية المتعددة ما بين الراوي وتجليات الحكائية والحبكة ...إلخ "وإذا قررنا أن شعر الصعاليك صورة صادقة من حياة أصحابه يسجلون فيه ما يدور فيها؛ فإننا نصل إلىٰ ظاهرة مترتبة علىٰ هذه الفكرة، وهي ظاهرة القصصية في شعر الصعاليك، فشعر الصعاليك في مجموعه شعر قصصي، يسجل فيه الشاعر الصعلوك كل ما يدور في حياته الحافلة بالحوادث المثيرة التي تصلح مادة طيبة للفن القصصي [2]" ،وفي قصيدة تأبط شرًا ـ المفضلية ـ التي مطلعها[3] :

يـــا عِيـــدُ مالَـــكَ مـــن شَـــوْقٍ وإِيـــراقِ
ومَـــرَّ طَيْـــفٍ علَـــىٰ الأَهـــوالِ طَـــرَّاقِ
يَسْـــرِي علَـــىٰ الأَيْـــنِ والحيَّـــاتِ مُحْتَفِيـــاً
نفســـي فِـــداؤُكَ مِـــن ســـارٍ علَـــىٰ ســـاقِ

(١) تجليات السرد في القصيدة الجاهلية ، بوتيوتة عبد المالك ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب واللغات ، جامعة منتوري قسنطينة ، الجزائر ، ٢٠٠٦/ ٢٠٠٧م ،ص٣.

(٢) الشعراء الصعاليك ٢٧٨.

(٣) ديوانه، ص ١٢٥.

إني إذا خُلَّـــــةُ ضَـــــنَّتْ بِنَائِلِهـــــا
وأَمْســـكَتْ بضـــعيفِ الوصـــلِ أَحـــذَاقِ
نَجـــوْتُ منهـــا نَجـــائي مِـــن بَجِيلـــةَ إِذْ
أَلْقَيْـــتُ ليلـــةَ خَبْـــتِ الـــرَّهِط أَرواقـــىٰ
ليلـــةَ صـــاحُوا وأَغْـــرَوْا بِـــي سِـــرَاعَهُمُ
بِـــالعَيْكَتَيْنِ لَـــدَىٰ مَعْـــدَىٰ ابـــنِ بَـــرَّاقِ
كأَنَّمـــا حَثْحَثُـــوا حُصَّـــا قوادمـــه
أَو أُمَّ خِشْـــفٍ بِـــذِىٰ شَـــثٍّ وطُبَّـــاقِ
لا شـــيءَ أَسْـــرَعُ منـــي لـــيس ذا عُـــذَرٍ
وذا جَنـــاحٍ بجنْـــبِ الرَّيْـــدِ خَفَّـــاقِ
حتـــىٰ نَجَـــوتُ ولمَّـــا ينْزِعُـــوا سَـــلَبي
بِوَالِـــهِ مِـــن قَبِـــيض الشَّـــدِّ غَيْـــدَاقِ
ولا أَقـــولُ إِذا مـــا خُلَّـــةٌ صَـــرَمَتْ
يـــا وَيـــحَ نفســـيَ مِـــن شـــوقٍ وإِشْـــفاقِ

تتجلىٰ السردية ونستطيع أن نستنطقها ، فالراوي من أول القصيدة يفتتحها في صورة حوارية بينه وبين صورة مجازية استحضرها حسه الشاعر ، تقيم حوارًا داخليًا ،وخارجيًا في آن : يا عيد مالك من شوق وإيراق ، كلمة مفتاحية صدّر بها قصيدته / سرديته ، وأمسك بزمام قصته التي يرويها غير متعجل عن الطيف، طيف محبوبته الذي يسري علىٰ البعد وعلىٰ العقبات، وبما لها من صفات وسمات ندر أن تكون في غيرها تسري من بين حروفها ولَهٌ وشوق،وياله من فداء يفديه إياه " نفسي فداؤك " ونعم الجزاء تعبيرًا عن محبة دفينة ، ثم

يظهر الراوي بصوته هو عن نفسه يحكي ويسرد قصة هو بطلها ويقص قي صورة سردية ماتعة مفعمة بالإثارة إذ نراه ينجو من هذه العصبة الذين أغروا به سراعهم وكأنهم من شدة سرعتهم ذكر النعام ، لكنه البطل السابق ،ولا يستطيع أحد اللحاق به، وينتقل بنا إلىٰ حكاية داخل الحكاية ملتزمًا بالراوي العليم الذي يذكر ما يحدث معه- إن حقيقة أو خيالًا- فتبدأ القصة بمشهد البطل ذي المبادئ السامية والأخلاقيات التي لا توجد إلا في قليلين من البشر، وينهي سرديته بإظهار كيفية تعاون الصعاليك، وكيف أنه سابقهم إلىٰ الغايات العليا ، وإن يكن مظهره ليس المظهر الذي يُصدق معه أنه ثابت بن جابر الذي طارت أخباره تتحدث عنه ، مما أثار من حوله ،وأطلقوا سهام اللوم والعتب ،وتشددوا في هذ االلوم، فيرد عليهم بما انطوت عليه نفسه من فضائل وما انطوىٰ عليه عقله من فلسفة عيش ، هي فلسفة الصعاليك ، وأن هذا اللوم في حقه لا يقع.

ولقد انطوت القصيدة علىٰ راوٍ بدأ القصيدة وأنهاها ، وانطوت علىٰ حوار داخلي وخارجي يجمع الواقع بالخيال ، فينطلق حوار الداخل بين النفس وصاحبها وحوار الخارج بين الفارس النبيل وأعدائه تارة ورفاقه تارة أخرىٰ .

وفي قصيدة أخرىٰ ، وهي تائية الشنفرىٰ الأزدي[1]، التي مطلعها :

لا أَمُّ عَمـــــرو أَجمَعَـــــت فَاِســـــتَقَلَّتِ

وَمـــــا وَدَّعَـــــت جيرانَهـــــا إِذ تَوَلَّـــــتِ

وَقَـــــد سَـــــبَقَتنا أُمُّ عَمـــــرو بِأَمرِهـــــا

وَكَانَـــــت بِأَعنـــــاقِ المَطِـــــيَّ أَظَلَّـــــتِ

(١) ديوانه،ص٣١.

وقصيدته متتاليات سردية تصف أحداثًا وتقص حكايا من حكايا الصعاليك ، وتطلعاتهم وفلسفتهم في الحياة ، فبينما تقص علينا الأبيات من المطلع وإلىٰ البيت الخامس عشر قصة أميمة ، أم عمرو ، وما كان في ثنايا ذلك من بيان وصفها بباقات الحسن ،وأغاريد الثناء ، من حُسنها في ذاتها وثناء جيرانها عليها ، وعفتها ، وسماحة أخلاقها ، وكمها ، وكثير كثير من صفات أغدقتها عاطفة الشاعر عليها باستخدام ضمير الغيبة عن أخبارها وعن انشراح صدر من يتعامل معها ، بما في ذلك زوجها الذي يثق فيها ثقة كاملة ، وتنقلنا القصيدة بعد ذلك لأجواء مغامرة يتعامل في التعبير عنها بصيغة الجمع إذ تجمعه برفقة من الصعاليك نراهم لا يأبهون لشئ ولا يخشون من أحد بل يُخشون، ويبلغ الحكي المدىٰ عندما يعرف شخصيات بأسمائها فيذكر اسم من قتلوا وجزاء مَن قتلوا في ثأر أخذوه ونكاية قاموا بها ، وتأتي خاتمة القصيدة في بيان عن خلق الشاعر وفلسفته في الحياة والموت وأنه لا يأبه لموته ، بل لا دمع يذرف عليه ،وأن الموت قادم لا محالة مهما يكن محل الرجل ومكانه ، وبقية البيات في وصف نفسه وبيان سماتها التي لابد وأن يعلم القاصي قبل الداني من هو .

سمات أسلوبية في شعر الصعاليك

إذا كان القوم قد تمردوا علىٰ أقوامهم وخرجوا علىٰ نمط القبيلة ونظامها ، فمن المفترض أن يكون شعرهم ترجمة لهذا التمرد والخروج ، فهل هذه الفرضية صحيحة؟

لقد تمرد الصعاليك في شعرهم في جوانب منه لكنهم لا يمكن أن يخرجوا من نمطه السائد كل الخروج " ومهما يبلغ بهم المرء في الخروج علىٰ تقاليد مجتمعهم الأدبي من ناحية موضوعات شعرهم ، أو معانيه أو خصائصه الفنية ، فما هم بقادرين علىٰ الخروج عليه من ناحية لغتهم ، لأن هذا الجانب اللغوي هو العامل المشترك بينهم وبينه[1]، ومع هذا الاشتراك مع المجتمع الجاهلي في اللغة الأم التي لا يستطيعون الخروج عنها إلا أن تمرد هؤلاء وانفرادهم في الصحراوات وعدم امتزاجهم بالمجتمعات ـ الأدبية خاصة ـ جعل في لغتهم مزية خاصة ميزت الصعاليك عن غيرهم ونتيجة هذا من الناحية اللغوي أمران:

" **الأول** أن لغة شعراء الصعاليك أقرب إلىٰ فطرة اللغة العربية وأصدق تمثيلًا لها إذ هي صادرة من منابعها الأولىٰ.

الأمر الثاني : كثرة الغريب في شعرهم حتىٰ ليشعر الناظر فيه أحيانًا أنه مجموعة من الطلاسم اللفظية "[2] ودليل الأمر الأول أن أصحاب المعاجم اللغوية كتاج العروس ، اعتمدوا في تكوين مادتهم اللغوية علىٰ شعراء الصعاليك خاصة من بين أشعار الجاهليين ،وبناء علىٰ الأمر الثاني فإن أشعار الصعاليك حفلت بغير قليل مما لم يفهمه حتىٰ علماء العربية ، فها هو

(١) الشعراء الصعاليك ٣١٢.

(٢) السابق ٣١٣ بتصرف .

الأصمعي يصرح بأنه لا يعرف سحاليل التي في قول الأعلم [١]، وكذلك بيت تأبط شرا الذي يقول فيه :

أزجُّ زلـــــوجٌ هـــــذرفيٌّ زفـــــازف

هِـــزَف يبـــذ الناجيـــات الصـــوافنا[٢]

وهذه الغرابة والاستيحاش في اختيار الكلمات ليس صادرًا عن تلاعببالغريب والحوشي من الكلام ، وإنما هو يأتي متسقًّأ مع تلك الذات الشاعرة التي تعيش هذه الحالة من الاغتراب والبعد عن مجتمعهم، فصعوبةالكلمة هنا هي تجسيد لتلك المعاناة النفسية التي يعيشونها واقعًا، حضرت فيه الصحراء بقوة بكل حيوانها ووحشها وشجرها وجبالها وسهولها[٣] .

ومما يمكن رصده أيضا من سمات في شعر الصعاليك هو ورود الكثير من أسماء الوحوش والحيوانات التي تكون غالبا مفترسة ، وشرسة لتؤدي حالة من تصوير شكل المطاردة المستمرة التي يعيشها الشاعر الصعلوكي ، تجاه مجتمعه ، أو أنه قد بات نافرًا من الاستئناس بنوعه من بني البشر الذين يعيشون في تقاليد جعلت من الصعاليك منبوذين قيميًّا ومجتمعايًّا ، وأصبح في حالة اتفاق مع هذه الوحوش البرية، يقول الشنفري[٤]:

(١) شرح أشعار الهذليين ١/ ٥٧ ، وينظر : الشعراء الصعاليك : ٣١٦.

(٢) الأغاني ١٨/ ٢١٣

(٣) السابق ١٠٥ .

(٤) ديوانه، ص ٥٨.

ولـــي دونكـــم أهلـــون ســـيد عملـــس

وأرقـــط زهلـــول وعرفـــاء جيـــأل

هُـــم الأهـــل، لا مســـتودعُ الســـرِ شـــائعٌ

لـــديهم ولا الجـــاني بمـــا جَـــرِّ يُخْـــذَلُ

فكأن السباع والمفاوز قد الفت هؤلاء الصعاليك لإحساسهم بأنهم مطاردون مثلهم ،

فنشأت بينهم علاقة وحدة المشاعر والشعور ، يقولتأبّط شرّا[1]:

أبيـــت بمغنـــىٰ الـــوحش حتّـــىٰ ألفتـــه

وتصـــبح لا يحمـــي لهـــا الـــدهر مرتعـــا

وقوله[2]:

يـــرىٰ الوحشـــة الأنـــس الأنـــيس ويهتـــدي

بحيـــث اهتـــدت أم النّجـــوم الشـــوابك

❁❁❁❁❁

(١) ديوانه، ص ١١٥.

(٢) ديوانه، ص ١٥٦.

الخاتمة

هذه محاولة –من المحاولات– لقراءة شعر الصعاليك في العصر الجاهلي توقفت فيها عند الإطار الزمني الذي ظهر فيه هذا الشعر ، وعن التسمية وسببها،ومناقشة أبعادها والحديث عن مجتمع الصعاليك ، وقد عنيت خاتمة البحث هذه بتسجيل هذه النقاط :

- غير الشعراء الصعاليك في عتبات نصوصهم ومطالع قصائدهم ولم يلتزموا بالبدايات الكلاسيكية للقصيدة الجاهلية ،وتموضع اهتمامهم بالوحدة الموضوعية الذي تجلىٰ في غالبية شعرهم بصورة لافتة .
- السردية من الإمكانيات الفنية التي تظهر قدرة النص الشعري الجاهلي علىٰ تجاوز التصنيفات الفنية الحدود بين الفنون النثرية والشعر فهي قراءة عابرة للحدود تضيف بعدًا تشويقيًا مثيرًا للقصيدة .
- تعتبر القصيدة الصعلوكية مصدرًا معجميًّا لصانعي المعجم والدلالة الأول؛ لأن لغتهم تنطلق من شعور خاص يغلب عليه التمرد والثورة وعدم التماهي مع هو طبيعي في وقتهم .
- تعتبر القصيدة الصعلوكية مرآة شفيفة لبيئة الشاعر الجاهلي المتمرد بكل من فيها وما فيها من أحداثرصدتها عدسة الشاعر الصعلوكي.

ثبت المصادر والمراجع

-الأمالي ،لأبي علي القالي ، دار الكتب المصرية ،١٣٤٤هـ.

-تاج العروس من جواهر القاموس ، للزبيدي ، ت: د. عبد العزيز مطر ، مطبعة جامعة الكويت ، الكويت ، ١٩٧٠م .

-تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢١ (د.ت) .

-تجليات السرد في القصيدة الجاهلية ، بوتيوتة عبد المالك ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب واللغات ، جامعة منتوري قسنطينة ، الجزائر ، ٢٠٠٦/ ٢٠٠٧م .

-تحولات الحبكة ، د. خليل رزق ، مؤسسة الإشراق بيروت ، ط١/ ١٩٩٨م .

-خزانة الأدب ولب لباب لسان العربللبغدادي ، ط بولاق ، القاهرة (د. ب) .

-خطاب الحكاية : جيرار جينات ، ترجمة : محمد معتصم ، عبد الجليل الأزدي ، وعمرو الحلي ، منشورات الاختلاف ، الجزائر،٢٠٠٠م .

-ديوان السليك بن السلكة،أخباره وشعره ، دراسة وجمع وتحقيق : حميد آدم ، وكامل سعيد عواد ، مطبعة العاني ، بغداد، ط١، ١٩٨٤م.

-ديوان الشنفرىٰ ، جمعه وحققهد. إميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢، ١٩٩٦م.

-ديوان تابط شرًا وأخباره ، جمع وتحقيق :علي ذو الفقار شاكر ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م .

-ديوان عروة بن الورد ، شرح ودراسة :أسماء أبو بكر محمد ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ٢٠٠٩م .

-السنن الكبرىٰ، البيهقي ، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي وأشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، وقدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة – بيروت،ط١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

-شرح حماسة أبي تمام ،للتبريزي ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ،مطبعة حجازي ، القاهرة ، ١٣٥٨ هـ

-شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، المحقق: غريد الشيخ وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م .

-شعر الصعاليك ، منهجه وخصائصه ، د. عبد الحليم حفني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧م .

-الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ،د. يوسف خليف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ (د . ت) .

-صحيح البخاري،تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر،دار طوق النجاة ،الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.

-لسان العرب ، ابن منظور ، دار صادر بيروت لبنان ، مادة صعلك.

-مختار الصحاح للرازي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ١٤١٠ / ١٩٩٠م.

-مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية ، د. عبد الحليم حفني ،الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٨٧م.